رافائيلا
إيديلباور

غير القابلين
للمُقايسة

رواية

دار نشر كليت كوتّا

www.klett-cotta.de كليت كوتا
2023 © بواسطة مكتبة J.G Cotta'sche
Successor GmbH، تأسست 1659 ، شتوتجارت
كل الحقوق محفوظة
طبع في ألمانيا
الغلاف ANZINGER UND RASP :
باستخدام صورة Kommunikation GmbH ، Munich
من picture alliance ©
تم إعداده بواسطة C.H.Beck.Media.Solutions ،
Nördlingen
مطبوعة ومجلدة من قبل شركة GGP Media GmbH ،
Pößneck
ردمك 978-3-608-98647-1
الكتاب الإلكتروني 978-3-608-12157-5

إهداء لوالدَيّ، جابي وهنري

كل فرد، وكل وجه بشري، ومسار حياته، هو مجرد حلم قصير إضافي من روح الطبيعة اللانهائية، ومن الإرادة المستمرة للعيش، إنه مجرد بنية عابرة إضافية، يرسمها ذلك الحلم بشكل عبثي على صفحته اللانهائية، المكان والزمان، ومجرد لحظة عابرة يكتب لها الوجود في مقابل ذلك، ثم يمحوها لإفساح المجال لأخرى جديدة.

آرثر شوبنهاور، *"العالم كإرادة وتمثّلًا"*

الفصل الأول

فيينا

كانت الساعة السادسة واثنان وثلاثون دقيقة في 30 يوليو 1914، عندما قام ضابط يعمل في سكك الحديد الملكية القيصرية بإيقاظ المزارع الأجير هانس رانفتلر، البالغ من العمر سبعة عشر عامًا، بعد أقل من نصف ساعة من النوم، عن طريق مكنسة كان يحملها في يده بطريقة فظّة.

كانت عربة القطار الفارغة على سكة حديد تيرول الشمالية، التي ظل مستيقظًا فيها للحراسة طوال الليل، لا تزال تحمل رائحة البصل والنفط. أحضرت العائلة الرومانية، التي كان يتقاسم معها المقصورة، في المساء الخبز ونقانق التسرفيلات ولفائف الملفوف والمخلل من شبكة الأمتعة، وكانوا يصدرون ضجيجًا عاليًا.

في بداية الرحلة، حاول هانس أن يتأقلم مع العباءة التقليدية التي سرقها من خزانة المزارع، ورأى بالفعل أن الظلام الذي حلّ على إنسبروك شريكٌ له في رحلته الوشيكة – عند ذلك قام الرجل بوخزه في أضلعه، ووضع كأسًا أمامه. قالت المرأة: "براندي البرقوق". هز هانس رأسه، دون أن يعرف ما إذا كان ذلك سيكون ردًا على طلب أم سؤال - لكنه كان قد تم سكب كأسٍ له بالفعل. الأطفال، ولد وبنت، كانا مُتدليان من شبكة الأمتعة يتأرجحان ويصرخان.

قال الرجل "يجب أن تشرب، أيها النمساوي!"، وشرب نخب هانس، الذي أفرغ بدورهِ الكأس بأكمله في جوفه، مُحرجًا؛ فارتجف بسبب لسعة الخمر، وانفجرت العائلة كلها ضاحكة. استمتع هانس معهم في البداية، لكنه لم يكن يعرف ما إذا كان عليه أن يشكرهم، وكيف يمكنه فِعل ذلك، ولكنه سرعان ما استدار إلى النافذة. بددت المقاعد الخشبية الصلبة في الدرجة الثالثة أي أمل في النوم على أي حال.

عندما تلاشت سهول التيرول العميقة ببطء في اللون الأخضر الذي يشبه لون الطحالب؛ أفسحت جبال الألب النمساوية الطريق أمام الأفق المكشوف مثل جدار تقسيم مُمتد، شعر بأن المكان "بعيد جد".

لم يغادر واديه منذ سبع سنوات.

عندما سقطت كومة من جذوع التنوب على والده فقتلته وهو في سن الثامنة والعشرين، أعلن مدير الشركة المُنتجة أنه سيتم نقله من إيمست إلى الأراضي المنخفضة. وبعد قداس طال بشكل فظيع، رافقت خلاله ترنيمة "دم ربنا يسوع المسيح الثمين" دعاء هانس الصامت بأن تُسرق سيارة المُدير، تم تحميله كسلعة مزعجة إلى داخلها. كانت المزرعة التي يُشتبه في أن والدته فيها بعيدة جدًا عن أقرب مدرسة ثانوية، لدرجة أن صاحب المزرعة لم يكن مضطرًا حتى لقول إن مسار تعليمه قد انتهى فجأة. كانت الوجوه القاتمة عند ماكينة تجفيف القش وبكرات المحراث تُحدق به، بينما تم إخباره بمصيره دون كلمة واحدة - مجرد إيماءات وإشارة إلى سرير متعدد الطوابق. كان عمره عشر سنوات، ولم يخرج من ذلك الفِناء ولا ليوم واحد.

أمام النافذة، تفتحت مشاهد الطبيعة، كما لو كانت مُتخيلة حديثًا: هناك يمكنك المشي بمحاذاة مولداو إلى براغ - كان هانس قد رأى ذات مرة جسر تشارلز كنقش نُحاسي على بطاقة بريدية. على الجانب الآخر، الذي كان أكثر سوادًا هناك، تقع سلافونيا وكرواتيا، حيث ازدهر بنجر السكر والذرة في المنطقة الوسيطة الخصبة عند نهر درافا بشكل أفضل من أي مكان آخر في الإمبراطورية. شعر أن بإمكانه تقريبًا لمس التربة والتبن وأبقار بيستوتشيف، فقد كانت واضحة جدًا أمامه. بدأ شاردًا في مضغ البطاطس، التي كان قد حشا بها جيوب معطفه كمؤونة للرحلة، وحاول قراءة "الجحيم" لدانتي، لكنه لم يستطع التركيز على رثاء فرانشيسكا. نظر مرة أخرى إلى المناظر الطبيعية التي تفتحت أمامه مثل خليج دائم التوسُّع.

هناك، حيث تشرق الشمس بعد عدة ساعات، تقع ترانسيلفانيا وبوكوفينا، حيث بشرت غابات روبينيا بجبال الكاربات؛ ثم أغمضت عينيه أخيرًا.

بعد ذلك، عندما استيقظ، كان الرومانيون قد رحلوا، وكان عامل السكة الحديدية يستعد بالفعل للنزول بالمجرفة إلى تحت الرصيف، حتى أن هانس لم يستطع سوى تخمين أنه قد نادى على عَجل "المحطة الجنوبية".

في محاولة لعدم إزعاج الرجل قدر الإمكان، استدار حول مقبض المجرفة البارز، والتقط الكيس، الذي كان قد ربطه بسلك عريض، من شباك الأمتعة. ثم مشى مُتعثّرًا عبر العربات ذات الألواح الصفراء والسوداء بثقلٍ لا يمكن إلا أن تتسبب فيه فترة نوم قصيرة للغاية. فتح الباب، وأصبح على الفور مستيقظًا. عندما وطأ أرض فيينا لأول مرة، في صالة السكك الحديدية، التي كان يهيمن عليها النسر الإمبراطوري ذو الرأسين، المُعلق فوقها، بدا له كما لو كانت أبواق أريحا على وشك فصل لحمه عن عظامه.

انطلق كل من حوله مثل المقذوفات. كان الناس ينادون بعضهم البعض، ويلوحون بقبعاتهم، ويسحبون حقائبهم، ومنهم مَن يخدمون، ومنهم مَن يحملون الحقائب، ومَن يشتمون. اتسعت القاعة التي ضمت كل هؤلاء الناس الذين يترنحون ويتصادمون. كان هناك صفير وبخار على السقف الزجاجي مما جعل هانس يشعر بالارتباك.

بمجرد أن وجد الشجاعة أخيرًا لمغادرة منطقة الوقوف، أصبح في خضم ذلك التشابك البابلي، وأحاط به عمال تشيكيون.

صاح الرجل الذي في المقدمة "توزيع الحِصص!"، وانحنى هانس في الوقت المناسب قبل أن تطير كُتلة مُغلفة بالكتان من فوق رأسه، والتي أمسك بها شابٌ خلفه برشاقة. تحت قمصانهم المتسخة، كانت عضلات أذرعهم الأمامية تشتد وهم يفكون اللفافة من حول رغيف الخبز الضخم، وقد أمسك به كل واحدٍ منهم دون أن يُلحق به ضررًا. عندما ضغط أحد الرجال البدينين قطعة خبز بحجم كف اليد على صدره، فكر هانس مشتتًا أن ذلك ربما يكون الوقّاد،

ونظر باحثا عنه ناحية المَخرج. كما لو كان مصدومًا من هذا الكرم، أمسك بقطعة الخبز في نفس الموضع على قميصه حتى ابتعدت المجموعة؛ عندها فقط تجرأ على الأكل.

غاب المَخرج عن ناظريه مرة أخرى. مر أمامه طاقَم أسود لامع، وحروفه الذهبية تتدلى لأعلى ولأسفل أمام عينيه. قفزت مجموعة من العاملين بزي رسمي أزرق لامع على أرصفة القطارات في حالة جنونية، وانطلقت شرارات من ولاعات الغاز الخاصة بهم حتى أثناء قفزهم، كما لو كانوا يسرعوا ليفروا بحياتهم. ثم فتحوا الأبواب، والسجائر في زوايا أفواههم بطريقة درامية، وأخرجوا حقائب ثقيلة. شاهد هانس بانبهار وجوههم المبتسمة؛ كانوا يتصرفون بصبيانية – بالتأكيد كانوا أصغر منه سنًا.

ما إن تم تحميل الأمتعة على العربات التي تم إحضارها على عجل حتى نزل الركاب ببطء - رجال ونساء يرتدون ملابس راقية، لدرجة أن خيطًا واحدًا مما على أجسادهم كان بالتأكيد أكثر قيمة من أي شيء امتلكه هانس في حياته. مد رجل شهم ذراعه لرفيقته، التي لم تنتبه للحركة في صالة المحطة، كما لو كانت معتادة تمامًا على وضع زينتها الصباحية في تلك الردهة. على الرغم من حرارة يوليو الشديدة، احتفظ الزوجان بفرائهما حول أكتافهما، وتحدثا بلغة غير مألوفة له، ربما لغة سلافية؛ تعجّب هانس للحظة، قبل أن يلاحظ أخيرًا الأحرف اللامعة على المقصورة: "فينيسيا إكسبرس"،

دفعه إلى الجانب رجل إيطالي ممتلئ الجسم، كان يجر فتاة خلفه وهو يوبّخها. ركض بسرعة. وفجأة شعر بالخجل من البقاء طويلاً بين كل هؤلاء الناس المتحضرين، في حين يلبس هو حذاءً خشنًا وسروالًا من الكتان ذا حمّالات بنية. خلع قبعته واسعة الحواف. أين كان الباب؟ كاد أن يتعثر في امرأة تُرضع صغيرها بجوار القضبان - "أنا آسف!" -، وكيف يمكن للمرء أن يميز بين كل تلك الشعوب؟ كيف يمكن أن يتحمل المرء كل تلك الانطباعات؟ رائحة نفاذة: صبيان يشويان شيئًا على نار مفتوحة - نار في مبنى المحطة! -، حضر أحد المشرفين، صارخًا بصوت عالٍ، يأمرهما بإطفاء النيران. ثم تعثر هانس في صندوق زهور، وغطى وجهه بيديه.

في الأساس لم يكن يعرف أي شيء. لم يكن أي شخص من معارفه قد ذهب إلى فيينا على الإطلاق، كما لم يخبر أحدًا بخططه، أو حتى ترك رسالة قبل ركوبه إلى تلفس في منتصف الليل. هناك كان قد ترجّل، وأعطى الفرس، التي كان يسير بجانبها عامًا بعد عام وهو يحرث الحقول، صفعة على مؤخرتها، حتى جرت واختفت في تلك الليلة الصيفية الثقيلة. عرف الحصان الطريق إلى المنزل، ولم يكن قلقًا بشأنه. من ناحية أخرى، لم يكن لديه حتى ما يكفي من المال لرحلة العودة. هذا يعني أنه كان معه أربعة كرونات بالضبط، والتي كفت لركوب الترام ووجبتين ساخنتين؛ ولكنها لم تكن تكفي لدفع ثمن مكان للنوم. كان يرتدي حول رقبته مدلاة فضية تحتوي على صورة له، كانت تخص والده – وكان يُفضل أن يموت عن أن يضطر لبيعها، كان ذلك مؤكدًا.

"عليك أن تذهب إلى الحلبة." جاء ذلك الصوت من مقربةٍ من أذنه، حيث جلس شاب بجانبه وقدم له سيجارة.

سأل هانس وهو مرتبك: "ماذا؟"

قال الآخر: "إلى ثكنة الروساو". بدا أنه من نفس نوعية هانس - كان بجانبه حقيبة ظهر جلدية، وكان يُفخم الحروف وهو يتحدث بلهجة سالزبورج.

قال هانس بهدوء: "لا أعرف ماذا تقصد". لكن الرجل من سالزبورج، أمسك عنقه وجذبه إليه وكأنه صديق حميم، وكما لو كان هذا هو الشيء الأكثر طبيعية في العالم بالنسبة لشخص غريب.

"بالتأكيد تريد التطوع".

كان على هانس أن يمسك السيجارة المشتعلة بطريقة رأسية، فقد عانقه الآخر بإحكام واقترب منه بشدة.

"سيتم الإعلان عن التعبئة العامة غدًا بعد أن أمر القيصر روسيا بالتحرك في الليلة الماضية. وربما سنكون رفاقًا في نفس الفوج حتى يكونوا مستعدين للزحف."

قال هانس أخيرًا: "لكنني حقًا لا أريد التطوع"، فتركه الرجل من سالزبورج على الفور.

"ولكن ماذا ستفعل إذًا؟"، سأل بعينين واسعتين.

"هذا هو المكان الذي أريد أن أذهب إليه -" أخرج هانس قصاصة الصحيفة التي وضعها بعناية في الجيب الداخلي لمعطفه. انتزع الآخر الورقة من يديه - وقرأ بصوت عال: "هيلينه تشيريش". "محللة نفسية، متخصصة في الهستيريا الجماعية والتأثيرات التخاطرية. 32 شارع لانديسجيريشت - يقع بالقرب من الجامعة، عند بوابة شوتين. عليك أن تأخذ الترام رقم ثلاثة، هناك عند المخرج الغربي".

قال هانس، وقد احمر خجلاً، وأمسك بقصاصة الصحيفة مرة أخرى: "أنت تعرف المكان هنا جيدًا".

"يدير عمي نُزُلًا في ليوبولدشتات. لقد ساعدت في العمل هناك في الصيف، لذلك أعرف المدينة. لكن ماذا تفعل عند محللة نفسية؟"

"لا شيء". ألقى هانس كيسه على كتفه ليشير إلى الرجل الآخر بأن يتوقف أخيرًا عن الثرثرة، لكنه لم يلحظ تلك الإشارة، ونادى على هانس، الذي كان بالفعل قد وقف وشق طريقه إلى المَخرج:

"إذا غيرت رأيك، تعال إلى ثكنة روساو غدًا في الساعة الثامنة مساءً. صديقي شنايدر وعدد قليل من الآخرين ينتظرون هناك معًا انتهاء الإنذار الألماني."

فأجابه هانس وكان قد ابتعد بالفعل: "بالتأكيد".

دخل عبر باب يؤدي إلى مبنى المحطة: مشهد لم يستطع أن يكتفي منه. رأى الضوء المنبعث من النوافذ الكريستالية وهو يتفرّق إلى آلاف الخطوط. انزلقت شمس الصباح، التي كانت تزداد قوة، عبر واجهة زجاجية حليبيّة فوق رؤوس الناس، وأدّى دَرَج كبير إلى صالة الوصول. حشود متداخلة - ورجلٌ مجري وقف يبيع اللوز المحمص، واحتضنت العائلات بعضها البعض بعد ما بدا وكأنه فراقٌ دام عصورًا طويلة، واندفع الناس إلى الخارج حيث كانت العربات تنتظرهم. لقد أزعج ذلك التداخل والازدحام هانس أقل من ذي قبل. ثم نزل إلى الطابق الأرضي وهو يشعر بالارتياح تجاه انطباعاته الجديدة عن الأمور.

شعر برغبة مُلحة في الذهاب إلى بائع التبغ على الجانب الغربي؛ إلا أنه أصيب على الفور بدوار شديد عند رؤيته لمجموعة متنوعة من المجلات المعلقة، التي ضغطت عليه بعناوينها. لم يسبق له أن وقف أمام مثل هذا الكم الهائل من المطبوعات في حياته. ثم تخطفت أيادي متسارعة الأخبار من اليسار واليمين: أيادي خشنة وباهتة، وأخرى بنية اللون، وأيادي ما زالت شبه طفولية، ألقى أصحابُ تلك الأيادي بضع بنسات مقابل الحصول على الأخبار العالمية الطازجة، ثم انطلقوا إلى مهمات أخرى. انتابه خوفٌ من أن يمسك أحد بكتفه وينتزعه من بين الحشد كجسم غريب.

على عكس الآخرين في صالة المحطة، كان هانس مدفوعًا بشغف لا يمكن كبته ألا ينسى ما تعلمه في المدرسة؛ ولم تكن بلادة الحياة اليومية قادرة على إخماد ذلك الجوع بداخله.

عندما كان الشتاء يُبطء وتيرة العمل، كان يسحب أوراق الصحف، التي أعطيت له لتجفيف حذائه، ويقوم بفردها وقراءتها، مما أتاح له معرفة أخبار مذبحة لينا في بودايبو، أو أن أموندسن قد اكتشف القطب الجنوبي. كان لساعات، وهو يقوم بتسميد الحقول، يُكرر الكلمات التي تعلمها حديثًا، حتى كان يستوعبها تمامًا.

—